التخاطر في السرد الروائي المعاصر، رواية الحمراء نموذجا

حسني مليطات

جامعة الأوتونوما في مدريد – إسبانيا

المُلخص:

يتناول الباحث في هذه الدراسة، ظاهرة توظيف "التخاطر" في السرد الروائي المعاصر، ويدرس فيها علاقة التخاطر بالتاريخ، ودلالة حضوره في الرواية التاريخية، ويتوقف الباحث أمام رواية "الحمراء" للروائية الألمانية (كيرستِن بويه) كنموذج تطبيقي على استحضار أسلوب التخاطر في الرواية المعاصرة، موضحاً من خلاله الأبعاد الرمزية التي تمتعت بها الرواية، وإظهار دوره في تفسير معالم الأحداث السردية الواردة فيها .

الكلمات المفتاحية: التخاطر، السرد الروائي، التاريخ، المتخيل

Abstract:

In this study, the researcher studies the phenomenon of employing "telepathy" in the contemporary narrative narration, and studies the relationship between telepathy and history, and its significance in the historical novel. And as an applied model of evoking telepathy in the contemporary novel; the researcher studies the novel of the German novelist Kirsten Boie "Alhabmra", explaining through telepathy the symbolic dimensions which the novel contains, also to show its role in interpreting the features of the narrative events contained in the novel .

Key words: Telepathy, narrative narration, history, imaginary

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

المُقدمة:

شهد النص الروائي في حقب زمنية مختلفة تطورا واضحا على صعيد الأسلوب واللغة ونقل الأفكار، ما جعل بعض الدارسين، ينتجون مفاهيم جديدة لكلّ حقبة من تلك الحقب التي شهدت ولادة جديدة لشكل نصي جديد للفن الروائي المعاصر، ومن الذين اهتموا بهذه الظاهرة الأمريكي (جيسي ماتز Jesse Matz) في كتابه (تطور الرواية الحديثة)، الذي وصف من خلاله بعض تجارب كبار الروائيين العالميين وإظهار مواقفهم من الحداثة الروائية في نصوص غيرهم من الكتاب، لاسيما الشباب منهم، وقد جاء تطور الرواية مواكبا للظروف التي يمر بها الإنسان، من تغيرات أيديولوجية ونهضة فكرية وأحداث سياسية وغيرها، ما جعل الرواية "توفّر المكان الأفضل الذي يمكن فيه ومنه تطوير الأساليب والمنظورات المهمة اللازمة لرسم صورة الحياة الغريبة للعقل، ومن ثمّ تداولها على نطاق واسع"[1].

ومن النصوص الروائية التي واكبتها الحداثة السردية، النصوص الروائية التاريخية، التي نالت قدرا مهمّا من الاهتمام بالتوافق مع التدرج الزمني لتطور بنائها الفني، وتعدّ الرواية التاريخية من النصوص التي ظهرت عليها علامات الحداثة بشكل واضح؛ ويظهر ذلك في المنهجية التي وظفها الكتاب في التعامل مع التاريخ ودمجه في السرد الروائي، فكانت البدايات مع نقل الأفكار التاريخية "بحرفيتها" دون إظهار جماليات السرد في الحكاية النصية، وبعد ذلك تداخلت العناصر الروائية في متن الأحداث التاريخية، ليصبح التاريخ "الظاهرة السردية" التي يعتمد عليها الروائي دون إشعار القارئ بأجواء القصص التاريخية المعتادة في كتب التاريخ، وتتمثل هذه الظاهرة في الشكل الحكائي الذي وظفه الروائي من خلال دمجه بالحبكة السردية، والوقفات

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

الوصفية، والحوار السردي بأنواعه، وتكسر الزمن الروائي ... وغيرها، ليولّد لنا هذا مفهوما جديدا أُطلق عليه اسم "المتخيل التاريخي"،

ومن أشكال الحداثة السردية التي اتبعها بعض الروائيين في السرد التاريخي، توظيف فنّ "التخاطر" في المتن السردي، وجعله الأسلوب السردي المتبع في وصف أحداث الرواية، وهو أسلوب حاضر في روايات الخيال العلمي التي تستشرف المستقبل، وتطل من خلاله على العالم اللامرئي، إلا أن توظيفه في السرد الروائي التاريخي يعد ظاهرة حداثية لم يأت إليها الكثير من الروائيين، وسيعالج الباحث في هذه الدراسة دلالة استحضار "التخاطر" في هذا السرد التاريخي، وبيان جماليات توظيفه من خلال رواية الكاتبة الألمانية (كيرستن بويه) *الحمراء*.

يُعرف "التخاطر" بأنه "التواصل اللاواعي بين روح وروح، والذي يمكن من خلاله إدراك عقلي قريب من شخصية أخرى"[(2)]، وهو فرع أساسي من فروع علم ما وراء النّفس "الباراسايكلوجي parapsychologie " المتخصص بدراسة التأثيرات العقلية وإدراكها، بمعنى أن التخاطر هو "أسلوب تواصلي" بين أشخاص يعيشون في زمنين مختلفين، ويُعرف هذا الأسلوب أيضا بأنه من الظواهر التي واكبت التقدم التكنولوجي والمعرفي في العصر الحديث؛ فقد استوحته السينما العالمية في صناعة أفلام الخيال العلمي، ولاقت هذه الأفلام رواجا واسعا في دور السينما في مختلف أنحاء العالم. ويُقسم التخاطر إلى عدة أنواع منها:

"**التخاطر المتأخر**: انتقال الأفكار يأخذ فترة طويلة بين الانتقال والاستقبال

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

التخاطر التنبؤي والماضي: انتقال الأفكار في الماضي أو الحاضر أو المستقبل بين إنسان إلى آخر.

تخاطر العواطف: عملية انتقال الأفكار والأحاسيس.

تخاطر الوعي اللاطبيعي: يتطلب علم اللاوعي للوصول إلى الحكمة الموجودة عند بعض البشر".[3]

واستمد بعض الروائيين هذه الأنواع في نصوصهم، ليجعلوا منها المادة الإيحائية إلى فكرة النص العامة، ويهدفون من توظيفها التعبير عن قضايا المجتمع والإنسان، كما جعلها البعض أداة "للتحكم بالماضي وامتلاكه عن طريق جزء من التاريخ"[4]، فما هي العلاقة بين التخاطر الماضي والسرد التاريخي؟ وهل هناك الكثير من النماذج السردية التي وظفت هذا النوع من التقنيات؟ ولماذا لجأ إليه الكُتاب المعاصرون؟

1-1: التخاطر في السرد الروائي:

يُجسد التخاطر في السرد الروائي المعاصر إطارا دلاليا في تفسير معالم النّص الروائي والكشف عن أبعاده الرمزية، ويعد التاريخ من التقنيات المتعارف عليها في استحضار ظاهرة التخاطر، والاستعانة بها في الاستدلال على أفكار المتن السردي، التي تحول التاريخ إلى متخيل ينتج العلاقات الدلالية المختلفة في فن الرواية، لتعرض من خلاله "منهج المصداقية والتطور"[5]. تتجسد أواصر العلاقة بين التاريخ والتخاطر في كون الأول يمثل المكون التأملي للأحداث المروية، والتي أُعتبر بعضها جزءا من الأحداث الخيالية والسردية، وقد درس الأمريكي (هايدين وايت Hayden White) هذه الظاهرة في كتابه الميتاتاريخ (ما وراء التاريخ)، الذي عالج من خلاله دلالات

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

السرد التاريخي الذي يخطه المؤرخون، ويرى أن التاريخ يتميز في مستويات متتالية هي: "الوقائع، القصص، الحبكة"[6]، أما (آرثر دانتو Arthur Coleman Danto) فقد بحث عن العلاقة المشتركة بين السرد والتاريخ، متحدثا عن الكيفية التي يكون فيها المؤرخ ساردا لبعض قصصه التاريخية، يقول: "يستطيع المؤرخ من خلال وصف الأحداث أن يستخدم العبارات السردية"[7]، وقد استوحى بعض الروائيين هذه القصص التاريخية وضمنوها قواعد السرد القصصي المعاصرة، ما ولَّد هذا مفهوما جديدا أُطلق عليه "ما ذكرناه سابقا" اسم "**المتخيل السردي**"، الذي يعيد قصص التاريخ إلى أحداث سردية بتقنيات معاصرة، بهدف: إعادة موروث الأمة التي يعتز بها كاتبها، والاتكاء على دلالاتها للتعبير عن الأحداث المعاصرة التي يعيشها الكاتب، لاسيما إذا كانت أحداث التاريخ مماثلة لأحداث بلاده السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية، وقد يكون استحضارها تعبيرا عن فضول الروائي في معرفة أحداث تلك الحقب الزمنية، وتفسير بعض الجوانب الظاهرة والمخفية فيها بتوظيف أسلوبه الروائي، وبما أن فكرة التخاطر تقوم على ظاهرة الإدراك العقلي وإمكانية التواصل مع الماضي وأحداثه، اختار بعض الروائيين هذه التقنية لتكون الظاهرة السردية العامة في الوصول إلى فكرة النص وإظهار معالمه بأسلوب حداثي، يستطيع الكاتب من خلاله التحكم في مجريات أحداث نصه وشخصياته، يقول الناقد الأمريكي(فريديرك جاميسو) (Fredric Jameso) "يعدّ التخاطر مركز الاهتمام للمرور عن طريق (الاستعارة) من أجل حساب القيمة الجمالية للنصوص المثالية"[8].

وقد تمثلت فكرة "الدمج السردي" بين التخاطر والتاريخ، من خلال:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

1/- استحضار بعض الشخصيات التاريخية في السرد الروائي المعاصر وجعلها جزءا محوريا أو ثانويا فيه، بهدف إحياء فكر تلك الشخصيات التي كان بعضها يمثل جانبا رئيسيا في تغيير معالم التاريخ القديم، ويتمثل ذلك – على سبيل المثال – في استحضار شخصية (عمر بن الخطاب) في رواية "عمر يظهر في القدس" للروائي المصري نجيب الكيلاني، وجعلها الشخصية الرئيسية في أحداث الرواية التي تتضمن أحداثا تتناول القضية الفلسطينية المعاصرة، كما يستحضر بعض الكتاب الشخصيات التاريخية من أجل محاكاة الواقع الذي يعيشونه، والتعبير عن فجواته من خلال المراحل الحياتية التي عاشتها تلك الشخصيات تارة، أو كان لها شأن ما في فضاء الحدث النصي تارة أخرى، وقد مثل الاتجاه الأول العراقي محسن الرملي في قصته القصيرة "أنا وبقيّة ابن بقي"[9]، التي استحضر فيها شخصية الشاعر الطليطلي المعروف (أبو بكر بن بقي)، وصاغ من خلاله فكرة "المنفى" وآثارها على الآخر، فالقصة تدور أحداثها على متن سفينة يستقلها مجموعة من المهاجرين ينتمون إلى جنسيات متعددة، وكان لكل واحد منهم أسبابه وراء الهجرة، أما ابن بقي فكان هدفه الرحلة إلى بلاد الشام والعراق، ليتعرف على الأماكن التي تأملها في ديوان المتنبي وأبي العلاء، فدار حوار مطول بين الشخصية العراقية المعاصرة التي وصفت حال العراق وبين الشخصية التاريخية المعروفة ابن بقي، بهدف تفسير الواقع المعاش في العراق، وبيان أسباب هجرة أبناءه منه، وتمثل الجزء الثاني في مقطع قصير ورد في رواية العراقي سنان أنطون فهرس[10]، الذي أعاد في إحدى فصولها "على لسان "ودود" العراقي الذي اتسم بالبعد المعرفي والفلسفي " شخصية الخليفة هارون الرشيد"، ليطلع على ما حدث ويحدث في البصرة وبغداد من قتل وتدمير نتيجة الحروب المعاصرة، بعد عصور ازدهار لم تشهد الحضارة العربية لها مثيلا .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

2/- نقل الشخصية المعاصرة إلى الزمن التاريخي، لإحياء حقبة تاريخية يرى الكاتب في استحضارها الكيفية التي كان عليها الآخر، وتفسير بعض الجوانب فيها برؤيته الآنية، كمفاهيم الهوية والأنا والآخر وغيرها، وتعد رواية **(الحمراء)** للروائية الألمانية (كيرستن بويه)[11] خير مثال على ذلك.

1-2: دلالة استحضار التخاطر في رواية (الحمراء):

تمثلت الحداثة السردية في رواية (**الحمراء**) في اعتماد الكاتبة على "التخاطر" في التعبير عن مجريات أحداث الرواية، القائمة على زمنين مختلفين: الأول الزمن المعاصر الذي يتوافق مع زمن الكاتبة، ويتجسد في الرحلة التي قام بها مجموعة من الطلبة من ألمانيا إلى بلاد الأندلس في إسبانيا وخاصة غرناطة؛ ليتعرفوا على عراقة الحضارات المتنوعة فيها، ويمثل هذا النوع من الزمن "السرد الاعتيادي" الذي لا يمثل قيمة محورية في هيكلية النص الروائي وتكوين أحداثه، والثاني الزمن التاريخي الذي يجسد مرحلة مهمة من مراحل التغيّر الجذري في تاريخ إسبانيا القديم، والمتمثل في اعتلاء الملكة إيزابيل العرش، وزواجها من الملك فرناندو، وبداية مرحلة الطرد لليهود والمسلمين من آخر معاقلهم في غرناطة، وتميز الزمن التاريخي في الرواية بخلوه من "التسلسل الزمني" المتعارف عليه في كتب التاريخ، وتضمنه للحكايات المتخيلة التي تتوافق مع تخيلات الكاتبة والحدث التاريخي نفسه، لتخلص إلى أحداث لم يرد ذكر بعضها في كتب التاريخ، وإنما كانت فجوة للعبور إلى متاهات السرد الروائي، والتعبير عن مكنونات الذات الحائرة داخله.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

ظهرت سمة التخاطر في الرواية عندما قام (بوسطن) "الشخصية الرئيسية في الرواية" بوضع يده على إحدى بلاطات الخزف المعروضة في إحدى المحال التجارية الخاصة ببيع النثريات إلى السائحين، لينتقل في فترة قياسية إلى زمن مغاير عن زمنه، حاملا معه مقتنياته المعاصرة كالهاتف والحقيبة وغيرها، لتكون هذه المقتنيات "المفارقة الزمنية" في السرد التاريخي، والكاشفة عن بعض أحداثه، وكانت هذه السمة المركز المحوري في الزمن التاريخي للرواية، حيث قسمت الكاتبة "من خلاله" مجريات الأحداث التاريخية إلى قسمين: الأول تصوير الحياة الاجتماعية التي عاشتها الملكة مع زوجها، وعلاقتها بالمستكشف الإيطالي (كولومبوس Colomb)، والثاني تصوير الحياة التخاطرية التي عاشها (بوسطن Boston) في زمن غير زمانه، وقد عبّرت الكاتبة عن هذه الأحداث من خلال توظيف عناصر القص المعاصرة المختلفة، والاتكاء على تخاطر (بوسطن) لتفسير هوية الأنا والآخر، وتحليل بعض الوقفات التاريخية برؤية سردية تتوافق والزمن الكتابي، ولعل أهم دلالات استحضار هذا النوع من التخاطر هو "السرد التعليمي"، الذي يهدف إلى تعليم القراء، لاسيما الناشئة منهم تاريخ بعض الحقب الزمنية بأسلوب يتلاءم مع الأبعاد المعرفية التي يتسمون بها، ولعل رواج أفلام الخيال العلمي من تلك الأبعاد التي رأت فيها الكاتبة سبيلا للوصول إلى عقول جيل مهم من القراء في هذا العصر، كما ناقشت "عن طريق التخاطر" بعض المفاهيم السياسية والفكرية التي كانت رائجة في ذلك العصر، لاسيما فيما يتعلق بموقف الملكين من قضية طرد اليهود والموريسكيين، وبالتالي جاء النص التاريخي المتخيل ليعبر عن صورهم ونظرة الآخرين إليهم بتوظيف السرد المتخيل.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

وظَّفت الكاتبة للتعبير عن الأحداث التاريخية بأقسامها ضمير الغائب "الهو" الذي أنطقته على لسان سارد كلي المعرفة، يطلع على مجريات الأحداث ويتحكم في بعضها، ولا ينتمي هذا السارد إلى شخصيات الرواية، وإنما هو سارد كاشف للأحداث ومطلع على مجرياتها، وهو الضمير المتعارف عليه في سرد الروايات التاريخية الكلاسيكية، ومن سماته أنه "يعرف ما وقع وما سوف يقع، يعرف الشخوص ويعرف عنهم وعن دواخلهم أكثر مما يعرفون"[(12)]، ولتوضيح دلالات الأحداث التاريخية، وظفت الكاتبة من خلاله بعض تقنيات السرد القصصي المعاصرة، ومنها:

1. الوقفات الوصفية:

وهي الوصف التأملي لمجريات بعض الأحداث في النص الروائي، ما يؤدي إلى إطالة البناء السردي فيه، وقد عدها الناقد الفرنسي (جيرار جينيت Gérard Genette) من تقنيات الزمن الحكائي، ويلجأ إليها الكاتب لتفسير معالم بعض شخصيات نصه، وإظهار جماليات بعض الأماكن فيه ما يولِّد في نفس القارئ التشوق إلى قراء الرواية، ومتابعة أحداثها بأسلوب يسهل عليه فهمها.

وفي رواية "المتخيل التاريخي" يعتمد الكاتب على هذه التقنية لإخراج الحدث التاريخي من إطار القصص التاريخية التقليدية الوارد في كتب التاريخ إلى سرد قصصي متخيل ومشوِّق، يعزز في نفس القارئ واقعية الحدث وكأنه جزء من الأحداث الجارية في زمنه الحاضر، كما تسهم تقنية "الوصف" في تجميل الحدث التاريخي وتوضيح معالمه برؤية سردية آنية؛ ليسهل على الكاتب أن يترك من خلاله لسمة الإبداع الكتابي المتخيل، وقد ظهر هذا بشكل جلي في رواية (***الحمراء***) ومن ذلك على

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

سبيل المثال، ما أوردته الساردة في وصف المشاهد الحوارية المختلقة بين الملك فرديناندو وزوجته إيزابيل، تقول: "يا حمامتي الصغيرة، ناداها فرديناندو، واتجه نحو المكلة من الخلف وأمسك عنقها بأصبعيه، أما إبهاماه فظلا يمسدان رقبتها بنعومة واحتراس إلى أن يقف زغب الشعر الناعم تحت المكان الذي كانتا تمسانه، ولكنه لم يشعر أنها تحسست أثر قبلته التي شمَّ بها شعرها برفق" [13]، فنلاحظ الوصف الآني والتأملي للحدث الذي لا يمكن أن نجده في كتب التاريخ، وإنما كان وصفا سرديا مختلقا من فكر الكاتبة نفسها، ليسهم في إثراء جماليات أسلوبها الكتابي في التعبير عن الحدث النصي، كما يسهم الوصف في جعل التاريخ داخل المتن السردي حدثا قصصيا خارج إطار الحدود الزمنية والبُنية الحكائية المتعارف عليها في كتب التاريخ، يقول الناقد الفرنسي (بول ريكور Paul Ricœur): "إن الوصف يحتفظ بتدرج المستويات، ويعود إلى القصة بأن يشبكها ويحبكها"[14]، ويرد ذلك عندما تحدثت الساردة في الفصل الأربعين عن (بوسطن) ودخوله مع الأميرة (يوهانا) إلى أروقة القصر، فقامت بوصف النسوة اللواتي كُنَّ هناك، تقول: "كانت النسوة قد خرجن بمواجهته عند دخوله، كنَّ خليطا، فمنهنَّ من كنّ كبيرات في السن ومنهنّ من كنّ شابات، ولكنهنّ كُنَّ جميعا في حالة من الهياج، وعدم الرضا، ناظرات خلفهنَّ، وقد تدلت من تحت مناديل رؤوسهنّ خصلات من شعرهنَّ الرَّطب، كما كانت فساتينهنّ ومحازمهنَّ مبللة من العنق حتى القدم، وتعجب من نفسه كيف أنه لاحظ كل تلك الأمور العبارة" [15]، فنلاحظ التعبير الوصفي المختلق، الذي أخرج نص الحمراء من رواية تاريخية إلى نص وظّف التاريخ كمتخيل ليوفق بين رؤية الكاتبة لتلك الأحداث ورؤية القارئ العادي لها؛ الذي يمكنه متابعة أحداث النص التاريخي وكأنه جزء من واقعه المعاش.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

2. المشاهد الحوارية في الرواية:

تُعدُّ المشاهد الحوارية في السرد الروائي من تقنيات التحكم في الزمن الروائي والعمل على إبطائه، وتسهم تلك المشاهد في الكشف عن بعض الأحداث القائمة في الرواية، وتعريف القارئ على بعض سمات شخصياتها، وقد وظفت (بويه) المشاهد الحوارية بنوعيها في رواية (***الحمراء)*** بكثافة، بهدف إطلاع المتلقي على مجريات الحدث التاريخي للتعايش معه وتصوير وتفسير بعض الأبعاد الدلالية الواردة فيه.

تنتمي المشاهد الحوارية في رواية "الحمراء" إلى "نظرية الاقتباس"[16]، التي تشير إلى تضمنيها في المتن السردي، وجعلها جزءا رئيسا في تكوّن أحداث الرواية، وقد أسهمت تلك المشاهد في إظهار جماليات "الدمج السردي" بين التخاطر والسرد التاريخي من خلال إطلاع القارئ على مجريات الأحداث القائمة بين (بوسطن) والملكة وابنتها والموريسكي واليهودي، كما صوّرت تلك المشاهد الأبعاد الفكرية التي اتسمت بها شخصيات الرواية، وتوضيح موقف الأنا من الآخر، ويمكن لنا أن نقسم المشاهد في الرواية إلى قسمين:

أ/–المشاهد الحوارية الخارجية؛ ويقصد بها الكلام المتداول بين شخصيات الرواية، وتوحي تلك المشاهد إلى فاعلية دور (بوسطن) في النص الروائي، وبيان وظيفة تخاطره مع الزمن التاريخي، فنجد "على سبيل المثال" في تحاوره مع الموريسكي (طارق) إشارة إلى صورة اليهود في غرناطة، وبيان موقف المسلمين من مبدأ التعايش مع الديانات الأخرى، تقول الساردة:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

"أشار بوسطن إلى الكيس الجلدي، الذي كان يرقد في حضن طارق في الفندق وسأل: "وهذا الذي في هنا ؟ "ضحك طارق" ألم تفهم بعد؟ سيغادر اليهود غرناطة، وسيهربون بالآلاف من كل أنحاء إسبانيا، من دون أن يأخذوا معهم شيئا باستثناء الثياب التي على أجسادهم، ويمنع عليهم أخذ شيء معهم، وإلا فعقوبتهم الموت "حدق طارق به طويلاً، هذه سرقة ...." سبعمئة سنة بطولها "هتف طارق، "عشنا جميعنا هنا معاً بسلام! هل أبعدنا نحن المغاربيين، اليهود من هنا؟ هل طلبنا من المسيحيين أن يبجلوا نبينا؟"[17]، فنلاحظ طبيعة المشهد الحواري الاقتباسي، الذي وظفته الكاتبة من خلاله مقصودية الحكاية، التي توحي إلى فكرة التعايش بين الديانات الثلاث التي كانت مع بعضها في الأندلس.

كما مُثِّلت المشاهد الحوارية لوصف "التخاطر السردي" وفاعلية الانتقال الزمني الذي حدث مع (بوسطن)، ويتمثل ذلك "على سبيل المثال أيضا" في لقاء (بوسطن) مع الأميرة (يوهانا) التي رغبت في معرفة حقيقة الزمن الذي يعيشه:

"لقد راقب كيف يتصارع لديها كل من الفضول والسخط، إلا أن الفضول انتصر لديها في النهاية. "لم آت من بلادكم"، قال لها بوسطن بحذر، إلا أن الأميرة لم تقاطعه... وأخذت بالارتعاش، ولكنها ظلت محافظة على صمتها ..." إن الزمن الذي أنتمي إليه، يعود إلى أكثر من خمسمائة سنة قادمة"، قال بوسطن، وبحث عن رد فعل ذلك في عينيها: "أعلم أن هذا وقعه مثل من يتحدث عن أسطورة، ولكن هذه هي الحقيقة" ... "أنا نفسي لا أعلم بالدقة كيف جئت، فجأة أصبحت هنا؛ وأما كيف سأعود، فمعرفتي بذلك أقل من معرفتي بكيفية مجيئي" ..." والأدوات ؟ "سألته الأميرة ..."إن الكتاب هو الكتاب، وما سميته أنت

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

بالبيضة هي في الحقيقة أداة يستطيع المرء أن يتحدث بها إلى ناس آخرين موجودين في أماكن أخرى؛ والجيب الجلدي"[18]، فهذا المشهد عبارة عن مشهد "تفسيري" للحالة التي يعيشها (بوسطن) في الزمن التاريخي البعيد عن زمنه الفعلي، كما فرض من خلاله موقفه من الآخر الذي نعته بأنه من أتباع الشيطان؛ بسبب حمله لمقتنيات الزمن الحاضر كالضوء والهاتف والكتاب الملون وغيرها، وهي من "المفارقات الزمنية" التي توحي إلى تخيل الكاتبة في مجريات تلك الأحداث. وبالتالي فإن الاستدلال بمثل هذه المشاهد الحوارية وغيرها داخل المتن السردي يوحي إلى أبعاد توظيف التخاطر في سرد هذه الحقبة الزمنية، والمتمثلة في تفسير بعض الجوانب التاريخية الغير واضحة للقارئ، وعرضها بما يتوافق مع التطور التقني الذي تعيشه الكاتبة.

ب/–المشهد الحواري الداخلي (المونولوج) : ويقصد به حوار الشخصية مع نفسها، ويهدف توظيف هذا النوع من المشاهد إلى الكشف عن ذات الشخصية في النص الروائي، وتوضيح الجوانب الخفية فيها، وجاء المونولوج في رواية (***الحمراء***)كسرد تكميلي للحدث التاريخي العام، وإظهار موقف تلك الشخصية من بعض أحداثه.

فمن المشاهد الحوارية مع الذات، حديث (بوسطن) مع نفسه عندما هرب من السجن الذي سجنته فيه الملكة بتهمة تعاونه مع الشيطان، وأنه يمتلك أدوات غريبة، فما كان من (بوسطن) إلا أن يدبّر مكيدة للهروب، فهرب وبدأ يفكر بطارق وسالومون، الذي كان مصريهم مجهولا بحكم مطاردتهم من محاكم التفتيش؛ لمعارضتهم أفكارها، يقول (بوسطن) محاوراً ذاته: "وماذا سأفعل عندما أصل غرناطة؟ وكيف سأساعد طارقا وسالومون؟ وحتى إذا كان حُرَّين، فسيبقى الخطر محدقا بهما، أما

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

بالنسبة لي، فالمحرقة بانتظاري، فلا بُدَّ من الرجوع إلى المستقبل ...."[19]، فنجد أن الحوار الداخلي كشف عن طبيعة البعد النفسي الذي اتسمت به شخصية (بوسطن) من الحيرة والقلق والاضطراب، وهنا تكمن مظاهر الدمج السردي بين التخاطر والسرد، وكأن (بوسطن) عاش ذلك الزمن، ولامس واقعه، حتى أن "العودة إلى الزمن" أصبح الهدف الذي يُنذر له (بوسطن) كل حياته، وهذه من الأساليب الفنية التي لجأت إليها الكاتبة للتعبير عن أحداث تلك الحقبة التاريخية؛ فمغامرات (بوسطن) في سبيل الخروج من متاهة الزمن التاريخي، كانت بابا للعبور إلى بعض الحكايات السردية الجديدة في الرواية.

كما أتى المونولوج في الرواية لمتابعة ما يدور في نفوس المسلمين واليهود، وإظهار مواقفهم من الآخر؛ فعندما دخل طارق "الشخصية الموريسكية"، وسالومون "الشخصية اليهودية" إلى قصر الملكة للمحاكمة، أظهرت الكاتبة طبيعة تلك الشخصيات ونفسيتها حال المحاكمة، من خلال سرد الخطابات الذاتية، لاسيما فيما يتعلق بطارق الشخصية التي تتسم بالقوة وعزة النفس ورفض القسوة، يقول طارق مخاطبا نفسه: "إنني أركع نعم، ولكن عينيّ متجهتان إلى مكة، إنني لن أركع لمخلوق حيّ من البشر، ولن أركع على أية حال .."[20]، ويقول أيضاً عندما دخل كبير المفتشين: "عليَّ أن لا أنظر إلى عينيه، فكّر طارق في نفسه؛ فهذا يثير حنقه، عليَّ أن أبدو مغلوبا على أمري، خافض العينين، بل جميعنا ينبغي أن نبدو كذلك"[21].

وبالتالي فإن هذه المشاهد والوقفات المختارة توحي إلى قدرة الكاتبة على محاكاة النص التاريخي، واتكاءها على فكرة الحدث التاريخي ومعرفته بعمق، والاكتفاء

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

بالفكرة الرئيسية[22]، ومتابعته من خلال خلق بعض الأحداث السردية التي تتوافق مع أفكار الكاتبة، وتكون هذه الأحداث المتخيل السردي المفسر لحقيقة الحدث التاريخي بتوظيف تقنيات السرد الروائي المعاصرة، ونرى أنّ هذا من الأساليب المهمة في توظيف التاريخ داخل المتن السردي الروائي، التي ربما تعدّ من أنجح الطرق في كسر نظرية أن الرواية التاريخية تؤدي إلى ملل القارئ وانزعاجه من كثرة أحداثها؛ لأن الرواية التاريخية التي تعتمد على المتخيل تبتعد عن تلك الأوصاف، وتتميز بقدرتها على محاكاة التاريخ والسرد المعاصرة في آن، لتخرج للقارئ نصا قابلا للقراءة بأوجه مختلفة، ليجد القارئ في ذلك خدمة فكرية مهمة، تنبع في الإفادة من فكرة التاريخ التي اتكأ عليها الكاتب من جهة، والاستمتاع في مشاهدة الأحداث المتخيلة والقائمة على عناصر القص المعاصرة من جهة أخرى، فكانت فكرة "التخاطر" في هذه الرواية نموذجا جليّا في فكرة "التجديد السردي" في الرواية التي تحاكي التاريخ في مضمونها.

1-3: التخاطر السردي وأزمة الهوية:

طرحت الكاتبة عن طريق فن التخاطر السردي موضوع "الهوية"؛ حيث تحدثت عن صورة الموريسكيين واليهود وتناولت جوانب مهمة من الأبعاد الفكرية التي كانت مسيطرة على العقلية الكنسية في ذلك الزمن، والتي قامت على إنشاء محاكم التفتيش المقدس، والقيام بعمليات الطرد على أساس الدين، وهي صورة جسدتها الكاتبة من خلال رؤية شخصيتها الرئيسية (بوسطن) الذي جعل من لقاء الصدفة بشخصيات (طارق) و (إسحاق)، وغيرهم العلامة الدلالية على تفسير تلك الهوية، ومن ذلك على سبيل المثال، عندما كان (بوسطن) في بيت أحد اليهود، وقامت مجموعة من

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

جنود محاكم التفتيش بطرق الباب بقوة، بهدف الدخول على البيت وتفتيش محتواه، واعتقال صاحبه لشكوكهم باعتناقه اليهودية، وعندما فُتح لهم ودخلوا، رأوا "الشمعدان" الذي يرمز إلى الديانة اليهودية، فصاحوا على صاحب البيت وأمروا باعتقاله؛ لأنه كان يمارس شعائره الدينية سراً، فقال له الجندي: "أيها اليهودي" فرد عليه الرجل: "لا تقل ثانية إنني يهودي، وإلا حطمت هذا فوق جمجمتك"[23]، منكرا يهوديته ومعتزا بمسيحيته المعلنة، وهذا القول يشير إلى أزمة الهوية الذاتية التي كانت ماثلة في نفس اليهودي، وكانت جزءا منه في يوم من الأيام، إلا أنها مع ظهور محاكم التفتيش ومحاربة ديانته، أصبحت منغلقة داخل ذاته، وبالتالي فإنه سيشعر "بخيبات الأمل الدينية، والتخلي عن المعتقدات، وإعادة النظر في القناعات السابقة المنهارة"[24]، ووجود (بوسطن) كالشاهد الفعلي على تلك الأحداث ترسيخ لهذا المفهوم، القائم على وصف طريقة تعامل محاكم التفتيش مع الآخر، الذي يختلف عن معتقداته وديانته.

ومن هنا ظهرت "أزمة الهويات" في ذلك العصر، وقد ظهرت بشكل جليّ كما رأينا عند اليهود والمسلمين (الموريسكيين)، الذين واجهوا نفس المصير أيضا، وقد عبرت كتب التاريخ عن تلك المعاناة بسرد وقائع تلك الأزمة، وأعاد بعض الروائيين صياغتها بأسلوب روائي متخيل كما في هذه الرواية، ومن الأمثلة على ذلك، رواية **ثلاثية غرناطة** للروائية المصرية (رضوى عاشور) التي وضحت أزمة الهوية الدينية التي عانى منها الموريسكيون آنذاك.

كما جاء تفسير معالم تلك الهوية عن طريق (طارق) الموريسكي، الذي كان ينتقد تصرفات محاكم التفتيش، ويوضح لـ(بوسطن) العقوبات التي فرضوها على

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

المسلمين في حال عدم التزامهم بقرارات المحكمة، والممثلة بثلاث قرارات لا رابع لها: إما أن تبقى سالما مقابل الدخول في الدين المسيحي، وإما أن تبقى على دينك وتتحمل عذابات الجنود، وإما أن تطرد وتهاجر خارج ديار الأندلس، وتمثل هذه القرارات نظرة مؤسسي تلك المحاكم وأنصارهم إلى الآخر، وكيفية التعامل معه إذا لم يتوافق مع نظرتهم الدينية، وهذه من الأمثلة الواضحة على أزمة الهوية على أساس الدين، التي كان نتيجتها هجرة وقتل الكثير من البشر، فجاءت هذه الرواية لتناقش هذه الظاهرة، بأسلوب التخاطر السردي، والابتعاد عن النقل الحرفي لقصص التاريخ المسرودة في كتب المؤرخين، ومناقشتها بأسلوب سردي مشوق قائم على توظيف المشاهد الحوارية، التي يتقبلها أي قارئ، بغض النظر عن عمره، ولعل هذا من أهداف الكاتبة أيضا، بأن يتوافق النص الروائي التاريخي مع عقلية القارئ بفترات عمرية مختلفة، حتى تصبح تلك المقتطفات جزءا من ثقافته، التي قد لا يصل إليها عن طريق كتب التاريخ، للاختلاف البيّن بين كتب التاريخ والسرد الروائي في التعبير عنها.

الهوامش:

(1) جيسي ماتز: تطور الرواية الحديثة، ت: لطفية الدليمي، المدى للإعلام والثقافة والنشر والتوزيع، بغداد، ط1، 2016م، ص17.

(2) Armand Pavese . Manual de parapsicología para descubrir y desarrollar sus facultades ocultas de médium, telepatía, etc. con 60 experimentos prácticos, Trad. Agusto Aimar, San Pablo: Colombia, 1994 , pág.15

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

(3) علي الزهراني: الباراسيكولوجي علم قديم في ظواهره وقدراته .. جديد بمنهجه ووسائله وأساليبه ، صحيفة الرياض، 23-10-2015م.

(4) Fredric Jameson . Arqueología del Fututro el deseo llamado utopía y otras aproximaciones de ciencia ficción. Trad: Cristina Piña Aldao, Ediciones Akal: Madrid, 2009. pág, 361

(5) Darío Villanueva . Historia, realidad y ficción en el discurso narrativo. El Polen de idea, PPU, 1991, Pág.117

(6) Hayden White . Metahistoria: la imaginación histórica en la Europa del siglo XIX. trad: Stella Mastrangelo, Fondo de cultura económica, México: , 2001 , Pág.16

(7) Arthar C Danto . Historia y narración ensayos de filosofía analítica de la historia, Trad: Eduardo Bustos, Paidós Ibérica: Barcelona, 1989, Pág 118

(8) Fredric Jameson . Arqueología del Fututro. El deseo llamado utopía y otras aproximaciones de ciencia ficción. pág. 362

(9) نشرت هذه القصة في مجلة المسلّة عام 2000، وأعاد الكاتب نشرها ضمن مجموعة قصصية أخرى في كتاب بعنوان برتقالات بغداد وحب صيني. ينظر: محسن الرملي: برتقالات بغداد وحب صيني، فضاءات للنشر والتوزيع، الأردن، 2012م، ص30.ص37.

(10) وهي الرواية الأخيرة للروائي العراقي سنان أنطون، صدرت عام 2016م عن منشورات الجمل .

(11) ولدت (كيرستن بويه) عام 1950م في هامبورغ – ألمانيا، نشرت كتابها الأول في عام 1985م، وقد اشتهرت ككاتبة للأطفال والناشئة، وتعتبر اليوم واحدة من أهم كتاب اللغة الألمانية في مجال أدب الأطفال والناشئة، في عام 2007 فازت (كيرستن) بجائزة خاصة لأدب الناشئة .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

(12) صلاح صالح: سرد الآخر " الأنا والآخر عبر اللغة السردية "، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003م، ص62.

(13) كيرستن بويه: *الحمراء*، ت: صاموئيل عبود، منشورات كلمة: أبو ظبي، 2010م ، ص43.

(14) بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان، ت: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2009م ، ص371.

(15) بويه، كيرستن: الحمراء، ص374.

(16) ويقصد بها: "نظرية الخيارات السردية في طرح كلام وأفكار الشخصية. العلاقة الأساسية هي واحدة من التأطير أو التضمين؛ حيث يعرض خطاب الشخصية أو يُنسب ضمن خطاب السارد أو إطاره" يُنظر : يان مانفريد: *علم السرد " مدخل إلى نظرية علم السرد*"، ت: أماني أبو رحمة، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2011م، ص144.

(17) كيرستن: الحمراء، ص116.

(18) السابق، ص376 وص377.

(19) السابق، ص325.

(20) السابق، ص388.

(21) السابق، ص389.

(22) ويقصد الباحث بذلك، أن الكاتبة في رواية *الحمراء* اعتمدت على ما ورد في كتب التاريخ بصورة عامة، وفهمت أحداثه وصاغت بعضها بأسلوبها السردي المشار إليه في هذه الدارسة، وقد صرحت هي بذلك في الكلمة الختامية التي أدرجتها في آخر الرواية، عندما قالت أن أحداث هذه الرواية بُنيت كنتيجة للفهم العام لحقبة تاريخ نهاية وجود المسلمين واليهود في

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400

الأندلس، وما يتعلق برحلة كولومبوس إلى استكشاف أمريكا وغيرها، والأمثلة على هذا القول حاضرة داخل المتن السردي للرواية، وخير مثال على ذلك الإكثار من استخدام تقنية "الوصف السردي" التي توحي إلى الأحداث المختلقة ، الغير حاضرة في كتب التاريخ، فعلى سبيل المثال عندما وصفت الساردة الحياة اليومية التي تعيشها الأميرة (يوهانا)، فتقول: "جلست يوهانا على حافة النافذة تنظر عبرها إلى الوادي، ومع أن شمس الصباح كانت قد أطلت إلى ما فوق الأفق بقليل، إلا أنها لم تعد تستطيع النوم .. على المرء أن يمنع أولئك المؤذنين من الدعوة إلى للصلاة مثل هذه الأوقات المبكرة عبر المآذن في أنحاء المدينة كلها هناك في الأسفل، قالت لنفسها، إن الصوت مرتفع على نحو فظيع، وهو يوقظ الجميع، فما جدواه بالنسبة لنا غير المسلمين؟ إنه أمر غليظ" ينظر: السابق، ص110.

فيجد القارئ أن الكاتبة هنا جمعت بين الوصف السردي والخطاب الغير المباشر لشخصية يوهانا، وكلاهما يشير إلى الصياغة السردية القائمة على التعبير المجمل عن وجهة نظر ابنة الملكة إيزابيلا من المسلمين، وهي صورة وردت في كتب التاريخ الحقيقي، وعبّرت عنه الروائية هنا بأسلوب سردي خارج إطار الحدث التاريخي المتعارف عليه، حتى أن قارئ النص في الوهلة الأولى يجد أن الرواية لا تتحدث عن حقبة تاريخية وإنما عن حدث واقعي ما مُعبَّراً عنه بصيغة سردية تثير في النفس التشوق إلى معرفة أحداثها، وكأنك تقرأ للروائي الكولومبي (ماركيز) أو الياباني (هاروكي موراكامي) في **روايتيه كافكا على الشاطئ و الغابة النرويجية** اللواتي يعتبرن نموذجا حيًّا على السرد الواقعي المشوق، وهذا النموذج ينطبق على كل الوقفات الحاضرة في النص الروائي وللهدف نفسه .

(23) كيرستن: الحمراء، ص97.

(24) كلود دوبار: أزمة الهويات " تفسير تحول، ت: رندة بعث، المكتبة الشرقية، بيروت، ط1، 2008م، ص290.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1400